سورة «الناس»

مِثل «الفلق» لأنها إحدى المعوِّذتين. وروى الترمذيّ عن عقبة بن عامر الجُهنيّ عن النبيّ ﷺ قال: «لقد أنزل اللهُ عليَّ آياتٍ لم يُرَ مِثْلُهُنَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ إلى آخر السورة، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ إلى آخر السورة». قال: هذا حديثٌ حسن صحيح[1]. ورواه مسلم[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مالكهم ومُصْلِح أُمورِهم. وإنما ذكر أنه ربُّ الناس، وإن كان ربّاً لجميع الخَلْق لأمرين:

أحدهما: لأن الناس مُعَظَّمون، فأَعْلَمَ بذكرهم أنه ربٌّ لهم وإن عُظِّموا.

الثاني: لأنه أمر بالاستعاذة من شرِّهم، فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يُعيذ منهم. وإنما قال: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ . إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ لأن في الناس ملوكاً فذكر أنه مَلِكُهُم، وفي الناس من يعبد غيرَه، فذكر أنه إلههم ومعبودُهم[3]، وأنه الذي يجب أن يُستعاذ به، ويُلْجأ إليه، دون الملوك والعظماء.

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾

يعني: مِن شرِّ الشيطان ـ والمعنى: من شرِّ ذي الوسواس؛ فحذف المضاف ـ قاله الفرّاء[4]. وهو بفتح الواو بمعنى الاسم، أي: المُوسوِس. وبكسر الواو

---

(١) سنن الترمذي (٢٩٠٢)، وهو في مسند أحمد (١٧٣٠٣).

(٢) في صحيحه (٨١٤).

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٧٨.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٣٠٢.

المصدر، يعني الوسوسة. وكذا الزَّلزال والزِّلزال. والوسوسة: حديث النَّفْس. يقال: وَسْوَسَتْ إليه نَفْسُه وَسْوَسةً ووِسْوَسَة، بكسر الواو. ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحُليّ: وَسْواس[١]. قال ذو الرُّمة:

فـبـاتَ يُـشـئِـزه ثَـأدٌ ويُـسْـهِـرُهُ تَذَؤُّبُ الريحِ والوَسْواسُ والهِضَب[٢]

وقال الأعشى:

تسمع للحَلْي وَسْواساً إذا انصرفَتْ كما استعانَ بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ[٣]

وقيل: إن الوسواسَ الخنَّاس ابنٌ لإبليس، جاء به إلى حواء، ووضعه بين يديها وقال: اكْفُلِيه. فجاء آدم فقال: ما هذا؟ قالت: جاء عدوُّنا بهذا وقال لي: اكْفُليه. فقال: ألم أَقُلْ لكِ: لا تُطيعيه في شيء، هو الذي غرَّنا حتى وقعنا في المعصية؟ وعمد إلى الولد فقطعه أربعةَ أرباع، وعلَّق كلَّ ربع على شجرة، غيظاً له. فجاء إبليس فقال: يا حواء، أين ابني؟ فأخبرته بما صنع به آدم، فقال: يا خَنَّاس، فحيِيَ فأجابه. فجاء به إلى حواء وقال: اكفُليه؛ فجاء آدم فحرَّقه بالنار، وذَرَّ رمادَه في البحر. فجاء إبليس فقال: يا حوّاء، أين ابني؟ فأخبرته بفعل آدمَ إيَّاه، فذهب إلى البحر، فقال: يا خَنَّاس، فحيي فأجابه. فجاء به إلى حواء الثالثة، وقال: اكفُليه. فنظر إليه آدم، فذبحه وشواه، وأكلاه جميعاً. فجاء إبليس فسألها فأخبرَتْه. فقال: يا خَنَّاس، فحيي فأجابه من جوف آدم وحوّاء. فقال إبليس: هذا الذي أردتُ، وهذا مسكنُك في صدر ولد آدم. فهو مُلتقِمٌ قلبَ ابن آدم ما دام غافلاً يُوسوس، فإذا ذكرَ الله لفظ قلبه وانخنس. ذكر هذا الخبر الترمذيّ الحكيم في نوادر الأصول بإسناد عن وهب بن منبه[٤]. وما أظنه يصح، والله تعالى أعلم.

---

(١) الصحاح (وسوس).

(٢) ديوان ذي الرمة ١/ ٩٠ ، وفيه: تذاؤب، بدل: تذؤُّب. قال شارحه أبو نصر الباهلي: يريد: بات الثور. يُشئزه: يُقلقه. والثَّأد: الندى، تذاؤب الريح: هو أن تأتيه الريح من كل وجه. والهضب: المطر.

(٣) ديوان الأعشى ص ١٠٥ ، وسلف ٩/ ١٧٥ وينظر شرحه ثمة.

(٤) نوادر الأصول ص ٣٥٣ - ٣٥٤ ، ولا يخفى على القارئ بطلانه.

ووُصِف بالخناس لأنه كثيرُ الاختفاء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥] يعني النجوم، لاختفائها بعد ظهورها. وقيل: لأنه يَخْنِس إذا ذكر العبدُ اللهَ، أي: يتأخَّر[١]. وفي الخبر: إنَّ الشيطان جاثمٌ على قلب ابن آدم، فإذا غَفَل وَسْوس، وإذا ذكر اللهَ خَنَسَ[٢]، أي: تأخَّر وأقصر.

وقال قتادة: «الخَنَّاس» الشيطان له خُرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا غَفَل الإنسانُ وسوس له، وإذا ذكر العبدُ ربَّه خَنَس[٣]. يقال: خَنَسْتُهُ فخَنَس، أي: أخَّرته فتأخر. وأخنسته أيضاً. ومنه قول أبي العلاء الحَضْرميّ ـ أنشد رسول الله ﷺ ـ:

وإنْ دَحَسُوا بالشَّرّ فاعْفُ تكرُّماً ... وإنْ خَنَسُوا عندَ الحديثِ فلا تَسَلْ[٤]

الدَّحْس: الإفساد. وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطانَ واضعٌ خَطْمه على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خَنَس، وإذا نسي اللهَ التقمَ قَلْبَه فوسوس»[٥]. وقال ابن عباس: إذا ذكر اللهَ العبدُ خَنَس من قلبه فذهب، وإذا غَفَلَ التَقم قلبه فحدَّثه ومَنَّاه[٦]. وقال إبراهيم التيمِيّ: أوّل ما يبدأ الوسواس من قِبل الوضوء[٧]. وقيل: سُمِّي خَنَّاسًا لأنه يرجع إذا غَفَلَ العبدُ عن ذكر الله. والخنس: الرجوعُ، وقال الراجز:

وصاحبٍ يَمْتَعِسُ امتِعاسا ... يزدادُ إن حَيَّيْتُه[٨] خِناسا

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٧٨ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٥٤ من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٥٤ - ٧٥٥ بنحوه، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٥٤٨ .

(٤) تهذيب اللغة ٧/ ١٧٤ ، واللسان (دحس).

(٥) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤٣٠١)، والبيهقي في الشعب (٥٤٠)، وضعف إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٧٤٢ ، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٨/ ٥٣٩ : غريب.

(٦) سلف قريباً بنحوه.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة كما في الدر المنثور ٦/ ٤٢٠ .

(٨) في (د): جننته، وفي (ظ): خنسته، وهي غير معجمة في (ز)، والمثبت من (م)، والرجز في النكت والعيون ٦/ ٣٧٨ ، والبيت الثاني فيه: يزداد من خنسه خناسا.

وقد روى ابنُ جُبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [قال الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغَفَل وسوس، وإذا ذكر الله تعالى خنس، فعلى هذا يكون في تأويل الخناس] وجهان[1]: أحدهما: أنه الراجع بالوسوسة عن الهدى. الثاني: أنه الخارج بالوسوسة من اليقين.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾

قال مقاتل: إن الشيطان في صورة خنزير، يجري مِن ابن آدم مجرى الدم في العروق، سَلَّطه الله على ذلك؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾. وفي الصحيح عن النبيّ ﷺ: «إنَّ الشيطانَ يجري من ابن آدم مَجرى الدَّم»[2]. وهذا يُصحِّحُ ما قاله مقاتل.

وروى شَهْر بن حَوْشَب عن أبي ثعلبةَ الخُشَنيِّ قال: سألت الله عن أن يُريني الشيطانَ ومكانَه من ابن آدم، فرأيته، يداه في يديه، ورجلاه في رجليه، ومشاعبه في جسده؛ غير أن له خَطْماً[3] كخطم الكلب، فإذا ذَكَر اللهَ خنس ونكس، وإذا سكت عن ذِكْر الله أخذ بقلبه. فعلى ما وصفَ أبو ثعلبة أنه متشعِّب في الجسد، أي: في كل عضو منه شعبة.

ورُوي عن عبد الرحمن بن الأسود أو غيره من التابعين أنه قال ـ وقد كبِر سِنُّه ـ: ما أَمِنتُ الزنى، وما يُؤمنني أن يدخل الشيطان ذكره فَيُوتِدَه؟! فهذا القولُ يُنبئك أنه مُتشعِّبٌ في الجسد[4]، وهذا معنى قول مقاتل.

---

(١) عبارة النسخ: وقد روى ابن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ وجهين.. وفي هذه العبارة سَقَطٌ وتحريف، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٣٧٩، والكلام منه، وخبر ابن عباس رضي الله عنهما سلف قريباً.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٥٩٢)، ومسلم (٢١٧٤) من حديث أنس ﷺ وفيه قصة، وسلف ١/ ٤٤٨ - ٤٤٩.

(٣) الخَطْم: من الدابَّة: مقدَّم أنفها وفمها. القاموس (خطم).

(٤) نوادر الأصول ص ٣٥٤.

ووسوسته: هو الدعاء لطاعته بكلام خَفِيٍّ، يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت[١].

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

أخبر أن المُوسوِس قد يكون من الناس. قال الحسن: هما شيطانان؛ أمّا شيطان الجنِّ فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطانُ الإنس فيأتي علانية[٢]. وقال قتادة: إن من الجنّ شياطينَ، وإن من الإنس شياطين؛ فتعوّذ بالله من شياطين الإنس والجن[٣]. وروي عن أبي ذرّ أنه قال لرجل: هل تعوَّذت بالله من شياطين الإنس؟ فقال: أوَمِن الإنس شياطين؟ قال: نعم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ الآية [الأنعام: ١١٢][٤].

وذهب قومٌ إلى أن الناس هنا يُراد به الجن. سُمُّوا ناساً كما سُمُّوا رجالاً في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]، وقوماً ونفراً[٥]. فعلى هذا يكون «والناسِ» عطفاً على «الجِنّةِ»، ويكون التكرير لاختلاف اللفظين.

وذُكر عن بعض العرب أنه قال وهو يُحدِّث: جاء قومٌ من الجن فوقفوا. فقيل: مَنْ أنتمْ؟ فقالوا: ناسٌ من الجن. وهو معنى قول الفرّاء[٦].

وقيل: الوسواس هو الشيطان. وقوله: «من الجِنةِ» بيان أنه من الجن، «والناسِ» معطوف على الوسواس. والمعنى: قُلْ أعوذُ بربِّ الناس من شرِّ الوسواس، الذي هو

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٧٩ بنحوه.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٥٢٨ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٧٩ .

(٤) ذكره مختصراً من قول أبي ذر رضى الله الزمخشري في الكشاف ٤/ ٣٠٣ ، وسلف ٨/ ٥٠٢ مرفوعاً .

(٥) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١]، وينظر الكلام في تفسير البغوي ٤/ ٥٤٨ ، وزاد المسير ٩/ ٢٧٩ .

(٦) في معاني القرآن ٦/ ٣٠٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة البغوي في تفسيره ٤/ ٥٤٨ .

من الجِنة، ومن شرِّ الناس. فعلى هذا أمِر بأن يستعيذ بالله من شرِّ الإنس والجن[١]. والجِنَّة: جمع جِنِّي؛ كما يقال: إنس وإنسيّ. والهاء لتأنيث الجماعة.

وقيل: إن إبليس يُوسوِس في صدور الجن، كما يُوسوس في صدور الناس. فعلى هذا يكون «في صدور الناس» عامًّا في الجميع، و«من الجِنة والناس» بيانٌ لما يُوسوِس في صدره.

وقيل: معنى «مِن شر الوسواس» أي: الوسوسة التي تكون من الجنة والناس، وهو حديثُ النَّفْس. وقد ثبت عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ تجاوزَ لأُمَّتِي عمَّا حدَّثَتْ به أَنْفُسَها ما لم تعملْ أو تتكلَّمْ به». رواه أبو هريرة، أخرجه مسلم[٢]. فالله تعالى أعلمُ بالمرادِ من ذلك.

تمَّ الجزء الثاني والعشرون من تفسير القرطبي
وبه تمَّ الكتاب
والحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) زاد المسير ٩/ ٢٧٩.

(٢) في صحيحه (١٢٧)، وسلف ٤/ ٤٨٧ وقوله: «أَنْفُسها» قال الإمام النووي في شرح مسلم ٢/ ١٤٧: ضبط العلماء «أنفسها» بالنصب والرفع، وهما ظاهران، إلا أن النصب أظهر وأشهر.